Vol 08 / Issue 33 / September 2024
ISSN 2568-6739 104-128

Journal of social sciences
Democratic Arabic Center For Strategic, Political & Economic Studies, Germany-Berlin

Arabic language between the years of development and the desired stability

Ismail souigat *
Higher School of the Teachers of Ouargla – Algeria

souigat.ismail@ens-ouargla.dz
https://orcid.org/0009-0004-7100-8218

Received: 17/07/2024, **Accepted**: 15/08/2024, **Published:** 29/09/2024

Abstract: The Arabic language is subject to the year of development as the rest of the world languages, but Arabic without the other languages of this age is closely linked to a sacred book, the Qur'an, so one does not live without the other, so the first hurried to put restrictions on the powers to try to limit the fast development of the language, because this kind of development means losing the link between us and our heritage with all its elements.In this research, we have tried now to highlight a part of the linguistic development and its relation with the public in the Arab world, and to try to know the distance between the blind and the health, and how to deal with this development, which is not inevitable despite the restrictions of the hall that tries to limit it.The question that the research is trying to answer is the dilemma of the dilemmas, if the development is an inevitable year, what is the use of law to limit or slow down this development?To what extent can updated linguistic manifestations, which are beyond the threshold of the abstract and which are regarded as common mistakes, be seen as a natural development in the language whose characteristics are not outside the general language system and what these laws and rules provide?

Keywords: Oral Language, patois, accent, Linguisticdevelopment, Limitations Rules.

*Corresponding author

مجلة العلوم الإجتماعية
المركز الديمقراطي العربي ألمانيا-برلين
المجلد:08/العدد 33/سبتمبر 2024
ISSN 2568-6739 ص104-128

اللغة العربية بين سنة التطور والثبات المنشود

إسماعيل سويقات *

قسم اللغة العربية-المدرسة العليا للأساتذة - ورقلة -الجزائر

souigat.ismail@ens-ouargla.dz

https://orcid.org/0009-0004-7100-8218

تاريخ الاستلام: **2024/07/17** - تاريخ القبول: **2024/08/16** - تاريخ النشر: **2024/09/29**

ملخص: تخضع اللغة العربية لسنة التطور كباقي لغات العالم، لكن العربية دون سائر اللغات في هذا العصر ربطها رباط وثيق بكتاب مقدس هو القرآن فلا يحيا أحدهما دون الآخر، لذا سارع الأوائل إلى وضع قيود قواعدية لمحاولة الحد من التطور السريع للغة، لأن هذا النوع من التطور معناه فقدان الصلة بيننا وبين تراثنا بكل ما يحمله من مقومات.وفي هذا البحث حاولنا أن نسلط الضوء على جانب من التطور اللغوي وعلاقته بالعاميات في الوطن العربي ومحاولة التعرف على المسافة الفاصلة بين العامية والفصحى، وكيفية التعامل مع هذا التطور الذي لا محيد عنه رغم قيود القاعة التي تحاول الحد منه.والسؤال الذي يحاول البحث الإجابة عنه وهو معضلة المعضلات، إذا كان التطور سنة لا مفر منها فما جدوى وضع القوانين من أجل الحد من هذا التطور أو الإبطاء منه ؟ وإلى أي حد يمكن اعتبار المظاهر اللغوية المحدثة التي تخرج عن مستوى الفصيح ويعتبرها الكلاسيكيون أخطاء شائعة، مظهر تطور طبيعي في اللغة لا تخرج في خصائصها عن نظام اللغة العام وعما يوفره هذا النظام من القوانين والقواعد؟

الكلمات المفتاحية: الفصحى، العامية، اللهجة، التطور اللغوي، القيود القواعدية

*المؤلف المرسل

مقدمة:

لغة الأمة هي واجهة حضارتها وثقافتها وعنوان هويتها، وعليه تعنى أمم الدنيا قاطبة بلغاتها وتبذل الغالي والنفيس في سبيل ترسيخها وتجذيرها والمحافظة عليها، واللغة عنصر من عناصر الشخصية التي تحفظ لكل أمة خصائصها المميزة وإلا كانت نسخة من الآخر الذي يريدها أن تفرط في لغتها لتذوب فيه، والتاريخ علمنا أنك مهما حاولت أن تذوب في الآخر وتتخلى عن مرتكزاتك الشخصية إلا أنك تبقى في نظره عنصرا ثانويا طارئا تحتل منه المرتبة الثالثة أو الرابعة في تصنيفه الاجتماعي والثقافي، لذا تحرص الأمم التي تحترم نفسها على التميز بشخصيتها وكيانها واستقلالها وحريتها. فاللغة " رمز وجود الأمة، وبقدر أصالة اللغة والمحافظة على اللغة الأصلية أو فقدانها تكون المجموعة البشرية أمة وشعبا أصيلا، أو مجرد أشتات فحسب " (Mawlud Qasim, 1973).

فاللغة إحدى المقومات التي تحافظ على كيان الأمة، فبها تجتمع كل عناصر المجتمع التي تعطيه استقلاله وتميزه. وبذلك تتجاوز كونها مجرد أداة يعبر بها عن نفسه أو وسيلة للتواصل، بل هي روح الأمة وتفكيرها وكيانها، بما تحمله من تصورات ومفاهيم وتاريخ وأمجاد وذكريات مشتركة تجعل الفرد ضمن الأمة التي ينتمي إليها يشارك بقية الأفراد " نفس التصورات، ونفس المفاهيم والطبائع، والتقاليد، والعادات،والذكريات، ولو كانوا ولدوا في قارات أخرى غير قارته" (Mawlud Qasim, 1973).

إن الذي يفقد لغته يقطع الحبل الذي يصله بالماضي، ويفقد الرابط الذي يربطه بأفراد مجتمعه، و الأمم المغلوبة التي تفقد لغتها تندمج وتذوب في جنس اللغة الغالبة، من أجل ذلك تجد الأمم التي تحترم نفسها وتعتدّ بشخصيتها تخوض حروبا لتحرير الأوطان وهي تدرك يقينا أن لا حرية حقيقية بدون حرية في اللغة والدين والفكر والعادات والتقاليد.

لكنّ ما يهدد لغة الأمة ليس العنصر الخارجي الذي يراه ويلاحظه الجميع بل خطر آخر خفي يتعلق باللغة نفسها وهو سنة التطور التي تخضع لها لغات العالم قاطبة وبدون استثناء، والسؤال المطروح إلى أي مدى نستطيع الحد من هذا التحول وهذا التغير الذي يحدث داخل اللغة الواحدة قبل أن تتشظى وتتحول إلى لغات مختلفة؟ وما الخصوصية التي تميز اللغة العربية فتجعلها أحوج من غيرها إلى وضع القواعد والقيود للحد ما أمكن من هذا التطور الذي قد يفقد

الأجيال المتعاقبة الصلة بتراثها عامة ودينها ممثلا في القرآن والسنة خاصة ؟ والأمر عندما يتعلق بدين الأمة وعقيدتها يكون أمرا في غاية الخطورة والحساسية.

حتمية التطور اللغوي:

سنة التطور سنة كونية لا محيد عنها، فهي تصيب الإنسان والأمم والعلوم والعادات واللغات وكل شيء يتعلق بالإنسان ويحيط به، والتطور اللغوي تطور له مظاهره وعلله وقوانينه التي يسير عليها منذ لغة آدم إلى يوم الناس هذا، ومعرفة المظاهر والعلل والقوانين آثار نستطيع بها في ما نزعم أن نعيد بها العامية إلى حضن الفصحى بمجهود يسير لو صادف حسن النية وصدق العزيمة، لأن المسافة بين العامية والفصحى مسافة ليست كبيرة.

مفهوم التطور:

جاء في معجم اللغة العربية المعاصرةتطور يتطور، تطورا، فهو متطور،تطور : مطاوع طور: تعدل، تحول تدريجيا من حال إلى حال(Mokhtar Omar, 2008).

وجاء في لسان العرب:الطَّوْرُ: التارَةُ، تقول: طَوْراً بَعْدَ طَوْرٍ أَي تارةً بعدتارة؛وجمع الطَّوْرِ أَطْوارٌ. والطِّوْر: الحالُ، وتجمع أَطْوارٌ. قال الله تعالى: وقد خَلَقَكُمأَطْوَاراً؛معناه ضُرُوباً وأَحوالاً مختلفةً؛ والأَطْوارُ: الحالاتُ المختلفةُ والتاراتُ والحدودُ، واحدُها طَوْرٌ(Ibn Manzur, 1999).

وإذا كان التطور اللغوي يعني أن اللغة دخلت طورا جديدا بغض النظر عن إيجابيته أو سلبيته (Helmy Khalil,2008)، فإننا نتحدث عن التطور بكونه منحى سلبيا يؤدي إلى الانحراف عن اللغة الأم والابتعاد عنها بمرور الزمن، وبدافع ديني بحت لا لغوي نرى أن اللغة المثالية التي ينبغي أن تتخذ نموذجا وتجب المحافظة عليها هي اللغة المستعملة لحظة نزول الوحي على المصطفى صلى الله عليه وسلم؛ وكل انحراف عنها تجب مقاومته لا لنحد من عملية التطور بالكلية ولكن لنزيد من بطء هذا التطور ووضع القيود في طريقه،وذلك لتكون المسافة بين النموذج اللغوي وهو اللغة الفصحى وما تفرع عنها مسافة تحت المراقبة وتحت السيطرة، مسافة لا تفقد اللغة الأم معها خصائصها فتنعدم الصلة كلية بين الأصل والفرع وبذلك نجد أنفسنا أمام لغة أخرى لا تحمل من سمات الأصل إلا علامات باهتة لا يكاد يتبينها عامة المستعملين للغة. ومعنى ذلك أن نحاول التحكّم في التطور الذي تخضع له اللغة وفق سنن التطور بحيث لا تفقد

الصلة بالكلية بين اللغة الأم وما يتولد عنها من أداءات لهجية قد تتحول بمرور الزمن إلى لغات مستقلة لا رابط بينها وبين اللغة الأم كما حدث للغات اللاتينية.

لغة آدم أصل اللغات:

قال تعالى :﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ﴾(Al- Quran 2:31)، وكما أن آدم أبو البشر،فلغة آدم هي أم اللغات في ما نعتقد وهي اللغة التي تفرعت عنها كل اللغات وفق سنة التطور، وقد خاض العلماء في مسألة تعليم الأسماء بين قائل بالتوقيف وقائل بالتواضع، ولكننا هنا نكتفي برأي واحد نظن أنه الأقرب إلى ما نميل إليه من الاعتقاد في هذه المسألة، وهو رأي العالم التونسي الكبير محمد الطاهر بن عاشور يقول بن عاشور: "والظاهر أن الأسماء التي علمها آدم هي ألفاظ تدل على ذوات الأشياء التي يحتاج نوع الإنسان إلى التعبير عنها لحاجته إلى ندائها، أو استحضارها، أو إفادة حصول بعضها مع بعض...، ثم يضيف... ولذلك نرجح أن لا يكون فيما علمه آدم ابتداء شيء من أسماء المعاني و الأحداث التي طرأت بعد ذلك، فكان إذا أراد أن يخبر عن حصول حدث أو أمر معنوي لذات،قرن بين اسم الذات واسم الحدث. ثم أضاف : وتعليم الله تعالى آدم الأسماء إما بطريقة التلقين بعرض المسمى عليه، فإذا أراه لقن اسمه بصوت مخلوق يسمعه فيعلم أن ذلك اللفظ دال على تلك الذات بعلم ضروري، أو يكون التعليم بإلقاء علم ضروري في نفس آدم بحيث يخطر في ذهنه اسم شيء عندما يعرض عليه فيضع له اسما. ثم أضاف قائلا:... وبهذا تعلم أن العبرة في تعليم الله تعالى آدم الأسماء حاصلة سواء كان الذي علّمه إياه أسماء الموجودات يومئذ أو أسماء كل ما سيوجد، وسواء كان ذلك بلغة واحدة هي التي ابتدأ بها نطق البشر منذ ذلك التعليم أو كان بجميع اللغات التي ستنطق بها ذريّاته من الأمم(Ibn Achour, 1984).

هذا ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ﴾(Al- Quran 2:31)،والذين أميل إليه ويطمئن إليه القلب أن هذا التعليم الذي بين الله به فضل آدم، هو مرحلة ثانية لا علاقة لها باللغة والقدرة على التعبير، إذ هو علم إضافي ميز الله به آدم عن بقية الحاضرين ساعتها، أما اللغة فشأنها شأن خلق آدم، نشأ كاملا بالغا،بأمره كن فيكون، فآدم وفي لحظة النشأة كان قادرا على الخطاب و المحاورة بكل ما يحتاجه للتعبير عن المواقف التي كان يجد نفسه فيها.

وهاته الطريقة في اكتساب اللغة عن طريق الإلهام على غير ما تعوده البشر لم تتأت في ما نعلم إلا لنبي آخر هو عيسى عليه السلام :﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (Al- Quran 19:29).

وآدم مثله مثل عيسى خلقه بخلاف المألوف و أنطقه بخلاف المألوف ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (Al- Quran 3:59).

وبعد هذا أيّا كانت اللغة التي تكلم بها آدم فقد نشأت اللغات في من نرى من لغة آدم بالتطور الذي يحدث لأي لغة باختلاف المكان والزمان وفق سنن التطور وقوانينه والعوامل المؤثرة فيه، إذا لم تجد اللغة كوابح وقيود تحاول جاهدة توقيف حركة التطور والتغير وتبطئ من هذه الحركة وهذا التبدل الذي قد يغير كل ملامح اللغة الأم فلا تكاد تجد في اللهجات المتولدة منها إلا النزر اليسير من سمات اللغة الأم.

إذ وضع القواعد الصارمة للغة ما وإلزام أفراد الأمة بتلك القواعد هو الذي يضمن للغة شيئا من الثبات الذي يحفظها من التبدل الكلي الذي يفصلها عن الأصل، ولعل مثال اللغة العربية واستقرارهامقارنة بغيرها من اللغات أحسن دليل على ذلك.

أصل اللغة العربية:

الأصل في تشعب اللغات تشعب الجماعات، ويرى الرافعي أنّه لا يمكن القطع بأن أصل اللغات كلّها لغة واحدة "(Al-Rafi'i, 1974).

والذي أراه أن أصل اللغات واحد وهو لغة آدم، ثم حدث تبلبل الألسنة الذي تحدثت عنه التوراة بعد نوح وهذا التبلبل لم يحدث بصورة مفاجئة و إنّما نشأ من انسياح الجماعات وتفرقها فنتج التنوع الذي هو الأصل في تفرع اللغات، واللغة العربية تنتمي إلى فرع اللغات السامية وهي منسوبة إلى سام بن نوح.وتردّ اللغات السامية كلها إلى ثلاثة أصول الآرامية و العبرانية والعربية.

وكلّ من اللغات السامية وأختها الآرية " اللاتينية و اليونانية والسنسكريتية " ترجع إلى لغة واحدة مفقودة انفصلت عنها، هذه اللغات كانت متشابهة في أول عهدها، ثم جعلت تتطور وتتنوع وتتباين حتى قلت وجوه المشابهة إلا ما يكون من قبيل الدلالة التاريخية على وحدة الأصل(Al-Rafi'i, 1974).

والأصل السامي الذي انشقت منه اللغات المتقدمة إنما هو اللسان البابلي القديم، فلقد رأى العلماء قريبة بين هذا اللسان وبين العربية، بل رأوا كلمات في العربية كأنما نقلت عن البابلية نقلا صريحا مع أنها في العبرانية والسريانية قد دخلها التحريف، ومن المشابهة بين البابلية والعربية، حركات الإعراب.ولما رجحوا أن البابلية هي اللغة السامية الأصلية، أو هي بقيتها بعد أن تنوعت،قالوا : إن هذا الأصل تفرعت منه سائر اللغات السامية، ثم انفصلت اللغات الشمالية عن الجنوبية، وتميزت كل طائفة منها بخصائص بحيث لا يمكن أن تكون إحدى الطائفتين قد أخذت من لغتها عن الأخرى(Al-Rafi'i, 1974).

وبعد أن انشعبت اللغات من البابلية، ذهب المعينيون ونزلوا اليمن وكانت لغتهم من البابلية في منزله العامية من الفصحى لما ثبت فيها من أثر المخالطة والتجول(Al-Rafi'i, 1974).

ثم نشأت الدولة السبئية القحطانية وهم العرب المستعربة، وقد اقتبسوا لغة المعينيين أي أنهم أخذوا لغتهم عن العرب العاربة ولغتهم ليست لغة مضر بل هي أصلها كما هي أصل اللغة الحميرية، أما العربية العدنانية فقد ابتدأت بعد الحميرية أو قبلها بقليل، فأصل هذه العربية لابد أن يكون من الحبشية والحميرية، ثم من اللغات السامية الأخرى، وعلى ذلك لا يمكن الجزم مطلقا بأن للعربية العدنانية أصلا معينا، كما يرى الرافعي والمشابهة بين العربية وباقي اللغات السامية أمر لا ريب فيه.

أطوار التهذيب كما يراها الرافعي:

وقد سمى الرافعي التطور الذي حدث للعربية تهذيبا وهو بذلك يعطيه معنى إيجابيا بحيث يكون التطور نحو الأفضل والأكمل، ولقد مرّ هذا التهذيب كما رأى بثلاثة أطوار ؛التهذيب الأول وكان على عهد سيدنا إسماعيل عليه السلام سبقته مراحل من التنقيح لا يمكن أن يحدد زمنها ولا أن تنسب لفرد معين(Al-Rafi'i, 1974).أما التهذيب الثاني فهو تهذيب أحدثته القبائل بعد انشعابها مما ساهم في تكوين العربية على هذا النحو من اللين والمطاوعة على التغير الذي تعاورها في كل عصورها قبل الإسلام، إنما هو عدم كتابتها، والرافعي يرى أن ما كتب لا يتغير، بالإضافة إلى ما جبل العربي عليه من التركيب الخلقي الصحيح والفطرة البدوية السليمة و الطبيعة العربية السامية.

"وكان العرب يأخذ بعضها عن بعض بالمخالطة والمجاورة، فربما انتقل لسان العربي عن لغته إلى لغة قبيلة أخرى، وربما تداخلت اللغات فنشأت من اللغتين لغة ثالثة على أنهم في ذلك لا يخرج كل منهم عن قياس نفسه ووزن طبعه "(Al-Rafi'i, 1974).أما الدور الثالث في تهذيب اللغة فهو عمل قريش وحدها، بعد أن كان التهذيب الثاني من عمل القبائل مشتركة، ذلك لأن قريشا كانت تسكن مكة بجوار الحرم ولم تكن تستقل بأمر نفسها في أمر معاشها كما أنها مهوى الأفئدة بالحج من عهد إبراهيم وكانت تلك القبائل التي تحج مكة متباينة اللهجات، مختلفة الأقيسة المنطقية المودعة في غرائزها، فكان قريش يسمعون لغاتهم ويأخذون ما استحسنوه منها فيديرون به ألسنتهم ويجرون على قياسه، فلما اجتمع لهم هذا الأمر ارتفعت لغتهم عن كثير من مستبشع اللغات ومستقبحها، وبذلك مرنوا على الانتقاد حتى رقت أذواقهم، وسمت طباعهم، وقويت سلائقهم وحتى صاروا في آخر أمرهم أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعا، وأبينها أبانة عما في النفس "(Al-Rafi'i, 1974).

كل هذا تم بمشاركة ومساهمة أسواق العرب وأهمها سوق عكاظ، حيث كانت العرب تتناشد الأشعار وما صاحب ذلك من انتقاد الأفصح منها مما ساهم في عملية التهذيب لأن العرب كانت ترجع إلى منطق قريش(Al-Rafi'i, 1974).

على أن هناك من الباحثين من ينكر هذا الدور لقريش (Al-Ghanimi, 2016)، ويرى أن عوامل انتشار لغة أو لهجة ما، ثلاثة، العامل العسكري، والعامل الديني، والعامل الثقافي.وقريش لم تكن تمتلك السلطة العسكرية، التي تهيئها لنشر لهجتها ولم تكن تمتلك سلطة دينية إذ أن التعصب التلقائي للديانة شيء والعمل على نشرها شيء آخر، ولم ترد أية رواية تدل على أن قريشا حاولت نشر ديانتها، بل بالعكس، فقد كانت قريش تستورد الأصنام من الشام، مثلما كانت تستقبل المبشرين من مختلف المناطق بأديانهم المتباينة (Al-Ghanimi, 2016)، كما أن قريشا لم تكن مركزا ثقافيا أو أن بها مدرسة تستقطب الشعراء والأدباء كما كان الحال في قصور الملوك في الحيرة مثلا، أما الأسواق الأدبية فيؤمها الشعراء من كافة القبائل ولا مزية عندها لقبيلة على أخرى، والغريب أن قريشا لم يظهر فيها أي صوت شعري مميز قبل الإسلام حتى قيل أن عمر بن أبي ربيعة المخزومي هو أول شاعر نبغ في قريش (Al-Ghanimi, 2016).

وخلص الباحث في النهاية إلى أن قريشا قبل الإسلام ما كانت مهيأة اجتماعيا لتصدير لهجتها ونشرها بين القبائل.

والأكثر من هذا أن هناك من لا يرى أفضلية لهجة قريش على بقية اللهجات يقول عبده الراجحي: " والذي لا شك فيه عندنا أن سببا واحدا هو الذي يجعل لهجة قريش هي المفضلة، ذلك أن النبي قريشي أما إن قريشا لهم نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها، فتلك مسألة يرفضها الدرس اللغوي الصحيح " (Al Rajhi, 1962).

ومعنى هذا أنه لولا السلطة الدينية ممثلة في القرآن الذي نزل بلغة قريش فجعلها مهيمنة على باقي اللهجات ما كانت لهجة قريش أن تهيمن على باقي اللهجات إذ ليس فيها من وجهة البحث اللغوي الحديث من العناصر الداخلية التي تتعلق باللهجة ذاتها ما يجعلها مهيمنة على باقي اللهجات العربية.

التطور اللغوي في العاميات العربية:

يرى الرافعي أن العاميات نشأت من اضطراب الألسنة وانتفاض عادة الفصاحة ثم صارت بالتصرف إلى ما تصير إليه اللغات المستقلة بتكوينها وصفاتها(Al-Rafi'i, 1974).

وهاته العاميات نشأت باللحن وهو الزيغ عن الإعراب بعد الإسلام وليس قبله وقد ظهر أول ما ظهر في الطبقات ضعيفة الفصاحة، هاته الطبقات التي تعاني من ذهول الطبع وتبلده لهذا لم تستطع مقاومة ومجاراة فصاحة القرآن الكريم وقصر بها طبعها عن الوصول إلى مستواه.

وبعد الفتوحات كثر اللحن وبمجيء الجيل الثاني في الإسلام اضطربت السلائق، وذلك بعد أن كثر الدخيل وعلقته الألسنة لدورانه في المعاملات، ولذلك هرع العلماء من أمثال أبي الأسود الدؤلي إلى وضع القواعد التي تحدّ أو تبطئ عملية الانحراف عن الأصل، وإلى دولة الأمويين كانت مقاومة اللحن شديدة، لكن بمجيء العباسيين اتسع الخرق على الراقع وفشت العجمة وغلبت على السليقة وأصبحت السلامة من اللحن لا تتهيأ إلا بالجهد والتحفظ وتأمل مواقع الكلام، هذا في الحضر أمّا في البادية فقد بقيت اللغة على خلوصها إلى آخر القرن الرابع.

وكانت العامية في الأمصار الإسلامية أول عهدها لحنا صرفا لما بقي في أهلها من آثار السليقة، وعلى حساب هذه الآثار كانت درجاتهم في القرب من الفصيح والبعد عنه، فكانت لا تزال قريبة من الفصحى في عوام الحجاز والبصرة والكوفة إلى القرن الثالث (Al-Rafi'i,

(1974).أما العامة في الشام ومصر والسواد، فقد علقوا ألفاظا كثيرة من الفارسية والرومية والقبطية والنبطية، فسدت بها لغتهم فسادا كبيرا. والمشكلة أن اللحن انتقل من العامة إلى الخاصة والغريب أن اللحن أصبح يؤاخذ عليه الخاصة في كتاباتهم لا في أقوالهم والبعد عن الفصاحة سببه مخالطة العجمة. وبعدما كانت ملكة واحدة عند العربي، صارت هذه الملكة ممتزجة من الملكة الأولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للعجم فعلى مقدار ما يسمعونه من العجمة ويربون عليه يبعدون عن الملكة الأولى.

وقد اختلفت لهجات العامية اختلافا بيّنا، ونهجت في كلّ مصر من الأمصار منهجا متميزا بفعل تعاقب الزمان واختلاف المكان والظروف التي أحاطت بأهل كل مصر، وساعد في ذلك كلّه أن العاميات مطلقة غير مقيدة بالقيود الثابتة كالكتابة والقواعد العلمية ونحوها، لهذا لا يمكن أن تكون اللغات العامية مستقرة على حالة واحدة في كل مصر من الأمصار، بل لابد من تغيرها في المصر الواحد جيلا بعد جيل ولولا هذا التغير ما تباينت في الجملة لأن جميعها راجع إلى لغة واحدة وهي العربية الفصحى.

ويرجع الرافعي اختلاف اللغات العامية في جملته إلى أربعة أسباب :

1 – وراثة المنطق : لأن التقليد في حكاية اللغة أصل طبيعي في الإنسان وحكاية الألفاظ واقتباس الأخف من اللغات، وإن كان أضعف وأقل استعمالا في أصل اللغة هو من خواص العامة، لأنهم لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال.

2 – علل الوراثة وطبيعة الإقليم : وذلك أن الناس يختلفون اختلافا طبيعيا في كيفية النطق بما يكون في ألسنتهم من عيوب الوراثة وبذاك تختلف الكلمة الواحدة باختلاف الناطقين بها، حتى كأن فيها لغات كثيرة وهي لغة واحدة،واللغة صورة نفسية للإنسان، والإنسان صورة نفسية للإقليم. ولو تدبرت حقيقة الاختلاف في اللغة لرأيته دلالة طبيعية على اختلاف الأقاليم،كأن الطبيعة تسم الألسنة كما تسم الوجوه(Al-Rafi'i, 1974).

3 – الإغراق في العجمة : فالأعجمي إذا تناول الألفاظ العربية أداها على الوجه الذي يستقيم له وإن كان معوّجا وتصرف فيها بالحذف والقلب والإبدال، ومزجها بمادة العجمة حتى تنقلب إلى رطانة أو ما يشبهها(Al-Rafi'i, 1974).

ومما يجري مجرى الإغراق في العجمة، ضعف اللسان ورخاوته بحيث لا يحتمل الكلمات التي تتألف من أحرف كثيرة، أو تكون مركبة تركيبا غير مستخفّ، فيحصّل الذهن من الكلمة صورة مجملة تتركب من أخف أحرفها، ثم تصاغ على طريقتي القلب والإبدال بحيث تخرج كأنها وضع جديد، وأكثر ما تصيب أمثلة ذلك في لغات الأطفال وألفاف العوام الذين لا مِران لهم على تصريف الكلام والتقلب في فنونه(Al-Rafi'i, 1974) .

4 – مخالطة الأعاجم : وهذا السبب ينوع العامية تنويعا محدودا لأنه مقصور على ما يقتبسه أهل الأمصار مِمّن يلابسونهم من الأمم المستعجمة كأسماء الأدوات ومرافق الحياة ونحو ذلك مما لا أصل له في مواضعاتهم واصطلاحاتهم، بيد أن الأمصار تختلف في هذا الاقتباس بحسب الأسباب الثلاثة التي ذكرت آنفا ولذلك بقيت عامية البدو أقرب إلى الفصيح من سائر اللهجات لقلة مخالطتهم للأعاجم، ولا يزالون على حيال لغات آبائهم إلا في الزيغ عن الإعراب،وإلا في ملكة الوضع ونظام اللغة. لهذا لما تعطلت ألسنة البدو من الإعراب تصرفت في الكلام على غير نظام فاختلفت من ثم لهجاتهم، حتى لتسمع العربي منهم فيغطي منطقه عندك على ما يعطيه كلامه، فإذا هو فصل ألفاظه رأيتها عربية صريحة(Al-Rafi'i, 1974).

وقد نبه الرافعي في نهاية هذا البحث إلى أمر هام وهو أن العربية مدنية معنوية لم تبرح قائمة على تحرير هذه اللهجات العامية وتهذيبها كلّما خالطتها في التعليم والقراءة،فإن ميراث العامية إنما يثبت في الأميين(Al-Rafi'i, 1974).

ومما تقدم يبدو أن الرافعي يرى أن العاميات تفرعت وتطورت عن الفصحى ونعني بها هنا لغة قريش التي نزل بها القرآن وإذا كان هذا ما يعنيه بالفصحى،فإنّا لا نقره على ذلك فالعاميات كما نزعم بعضها تفرع عن لغة قريش بحكم سنن التطور وبعضها تفرع وتطور من اللهجات العربية التي كانت تتكلم بها القبائل من غير قريش،صحيح أنّها لا تبعد في كثير منها عن لغة قريش ففيها من الصيغ والمفردات ما يجعل العربي يتفاهم مع أخيه وتمر الرسالة التخاطبية بينهما في سلاسة ويسر كبيرين بحكم أن هذه اللهجات متفرعة عن لغة واحدة وهذه العاميات تفاعلت عبر الزمن مع لغة القرآن وتأثرت به ونتج عنها لهجات تقترب أو تبتعد من الفصحى بمقدار تأثرها بها وتفاعلها معها وهذا النوع من التطور في العاميات قد نجده في الموقع الجغرافي الواحد بل وفي الحي الواحد بل في الأسرة الواحدة في الزمن الواحد.

والملحوظة الثانية أن العاميات كما يرى الرافعي وغيره من أنصار النظرة الكلاسيكية نوع من الانحراف والزيغ عن اللسان الصحيح وهذا اللحن وهذا الزيغ ينبغي أن يصحح ويصوب بخلاف ما تراه بعض الدراسات اللسانية الحديثة التي ترى أن تطور اللغات سنة كونية لا محيدة عنها وأنها عنصر إيجابي تحتفظ به اللغة بدورها الوظيفي في المجتمع لأن حاجيات الأمة في فترة ما ليست هي حاجياتها في ما مضى من تاريخها الطويل واللغة تتطور كما يتطور كلّ شيء في هذا الكون، فالتطور قانون طبيعي يجري على كلّ شيء.

ولذلك يعتبر هذا الفريق من الباحثين أن المظاهر اللغوية المحدثة التي تخرج عن مستوى الفصيح القديم ويتعقبها المصوبون اللغويون ويسمونها أخطاء شائعة، يعتبرها مظهرا من مظاهر هذا التطور الطبيعي الذي يحدث لأي لغة وفق قوانين وقواعد محددة وليست أخطاء شائعة كما يراها الفريق الأول.

" ولكن إلى أي حد يمكن اعتبار المظاهر اللغوية المحدثة التي تخرج عن مستوى الفصيح ويعتبرها الكلاسيكيون أخطاء شائعة، مظهر تطور طبيعي في اللغة لا تخرج في خصائصها عن نظام اللغة العام وعما يوفره هذا النظام من القوانين والقواعد؟ "(Chandoul, 2012).

وهذا باعتبار التطور اللغوي تغيرا يصيب اللغة في مرحلة من مراحلها استجابة لتغير الحياة الاجتماعية من أجل تحقيق وظيفتها التواصلية ضمانا لاستمرارية وجودها.

يرتكز مفهوم التطور في النظرية الوظيفية للغة على مبدأ التنافس على البقاء، فالبقاء للأقوى [حرب اللغات] والبقاء للأصلح وهو القادر على التكيف مع عوامل التطور لأداء الوظيفة التواصلية،وما يحدد بقاء عنصر لغوي دون آخر في التداول هو مبدأ الحاجة، لأن مبدأ الحاجة هو الذي يدعو إلى وجود ما يؤدي وظيفة ضمن وحدات اللغة واختفاء ما لا يؤدي ذلك(Chandoul, 2012).

مظاهر التطور اللغوي وأسبابه :

التطور اللغوي في لغة ما، يحدث وفق قواعد ثابتة، يمكن صوغها في صورة قوانين ثابتة، ومن هذه القوانين الصوتية، قانون السهولة والتيسير والقياس والعادات اللغوية للشعوب وبلى الألفاظ، والفصل الخاطئ، وسياحة الألفاظ وشاهد الحال وتعاقب التطور وسيادة الحالة الإعرابية والاشتقاق الشعبي، وأخطاء السمع والتطور الدلالي وتجديد الألفاظ.

والتغيرات الصوتية عموما تنقسم إلى تغيرات تاريخية وتغيرات تركيبية ومثال التغيرات التاريخية وهي تلك التغيرات التي تحدث من التحول في النظام الصوتي للغة، بحيث يصير الصوت اللغوي في جميع سياقاته صوتا آخر، ما أصاب حرف " القاف " فهو ينطق في بعض مدن الجنوب الجزائري " ڤ " القاف المثلثة " GA "، حيث يقولون في بقرة، بڤرة وقمر، ڤمر، والغريب أن هذا الحرف يقلب كافا عندهم أحيانا في مثل نقتلك فتنطق نكتلك على لهجة أهل جيجل في الشمال حيث يقلبون القاف كافا، كما أن هذا الحرف يقلب همزة في بعض مدن الغرب الجزائري فيقولون في قالك أي " قال لك "، آلك.

أما عن التغيرات التركيبية وهي التغيرات التي تصيب الأصوات من جهة الصلات التي تربط هذه الأصوات بعضها ببعض في كلمة واحدة فهي مشروطة بتجمع صوتي معين، وليست عامة في الصوت في كل ظروفه وسياقاته اللغوية(Abdel-Tawab, 1997).

وتتمثل التغيرات التركيبية في قانونين سماهما رمضان عبد التواب قانون المماثلة وقانون المخالفة ويتمثل قانون المماثلة في تأثر الأصوات اللغوية بعضها ببعض عند النطق بها في الكلمات والجمل، فتتغير مخارج بعض الأصوات أو صفاتها لكي تتفق في المخرج أو الصفة مع الأصوات الأخرى المحيطة بها في الكلام ؛ ومن أمثلة ذلك :

- تأثر تاء الافتعال دائما بالدال أو الطاء قبلها، نحو :

ذكر – اذتكر – ادّكر

طرد – اطترد – اطّرد

ضجع – اضتجع – اضطجع

- تأثر تاء الفاعل بالطاء، نحو:

صبغ – اصتبغ – اصطبغ

زجر – ازتجر – ازدجر

صفا – اصتفى – اصطفى

- تأثر السين المهموسة بالراء المجهورة قبلها فتقلب إلى نظيرها المجهور وهو الزاي مثل كلمة مهراس، التي ينطقها سكان أهل ورقلة في الجنوب الجزائري مهراز.

- تأثر الدال بالراء قبلها، فتنقلب إلى نظيرها المفخم وهو الضاد في بعض اللهجات مثل معربد – معربض.

– تأثر اللام في كلمة " بل " بالراء في أول الكلمة التي تأتي بعدها فتقلب راء، ومنه قراءة من قرأ ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ ﴾ وتقرأ " برّان " (Al– Quran 83:14) .

–قلب كسرة الميم فتحة في بعض اللهجات ومنها لهجة منطقة ورقلة حيث نقول في مِقود، مَقود ومِسن، مَسن و مِنبر، مَنبر

ومِكنسة، مَكنسة.

تحوّل صيغة فعيل بالفتح إلى فِعيل في بعض اللهجات كما هو عند بعض قبائل منطقة وادي سوف حيث يقولون بعير بالكسر بدلا من بعير بفتح الباء وشعير بكسر الشين بدلا من شعير بفتحها وكذلك نحيف ورغيف وبخيل...

–الصاد والسين تقلب زايا في بعض اللهجات ومنها لهجتنا في منطقة ورقلة حيث يقولون بدلا من سرداب زرداب وفي بعض اللهجات يقولون سعتر بدل زعطر.

واذا كان قانون المماثلة يحاول التقريب بين أصوات بينها بعض المخالفات فإن قانون المخالفة يعمد إلى صوتين متماثلين تماما في كلمة، فيغير أحدهما إلى صوت الآخر ومثاله كلمة شمس ينطقها البعض شمش وينطقها بعض الأطفال عندنا سمس وكذلك كلمة مجتهد تنطق عندنا مشتهد كما أن كلمة سنبلة ينطقها البعض سمبلة وقنبلة تنطق من البعض قمبلة مع مد ضمة الباء فتنطق قمبولة.

ومنه قلب الدال ياء فنقول في رددته، رديته.

أما القانون الثاني الذي يؤدي إلى تطور اللغة فهو قانون السهولة والتيسير (Abdel–Tawab, 1997).

فاللغة تميل في تطورها نحو التخلص من الأصوات العسيرة باستبدالها بأصوات لا تتطلب مجهودا عضليا، والإنسان وهو يمارس اللغة ينزع إلى توفير الجهد الذي يبذل في النطق، لهذا يميل إلى الاستغناء عن أجزاء من الكلمات لا يضر الاستغناء عنها بدلالتها، وهو الأمر الذي ينطبق على الكثير من التطورات الصوتية في اللغة. ويندرج تحت محاولة التخلص من الأصوات العسيرة محاولة بعض القبائل التخلص من الهمز لصعوبته فيقال عندنا مثلا:

سبوع بدلا من أسبوع وكذلك براهيم، سماعيل ؛ كما نقول فاق من الغيبوبة بدلا من أفاق ونقول واش صابك ؟ تيسيرا ل "أي شئ أصابك "؟.

ومنه قلب الهزة واوا في مثال السابق " واش " بدلا من أيش بمعنى أي شئ ؟.

ويقال في منطقتنا أيضا وذّن لذان، بدلا من الفصيح أذن الأذان وفلان مومن بدون همز، كما نقول باط بدلا من إبط.

وفي الغرب الجزائري يقلب بعضهم الهمزة عينا فيقولون علف بدلا من ألف وفي عموم الجزائر يسقطون الهمزة من كلمة ابن و أبو فيقولون بو بكر، بن علي، بو حفص وللتسهيل أيضا يمكن أن يتحول الهمز إلى مد في مثل قولنا ملأ، ملا، وأبطأ بطا، وأخطأ خطا؛ وفي المضارع يقولون مليت و خطيت وخبيت وخوك وبوك بدل من أخوك وأبوك كما يقال ضو بدلا من ضوء وشتا بدلا من شتاء كما يقولون وين راك، بدل " أين أراك " وهي عندنا بمعنى أين أنت ؟ ؛ وفي هذا المعنى نقول وينك للتخلص من همزة أنت ونقول نْتَ بدلا من أنت والغريب أيضا أننا نبدل همزة المتكلم في المضارع نون فنقول نشرب و نقرا ونخرج ونميز المفرد المتكلم عن جماعة المتكلمين بواو في آخر الكلمة فالمفرد يقول نخرج وجماعة المتكلمين يقولون نخرجو.

كما تقلب الهمزة ياء للتيسير في مثل صايغ وبايع وقاري وشايع.

ومن الميل إلى التيسير قلب الكسرة فتحة فنقول بدلا من ضِل ضَل وقلب الذال دالا فنقول في جذر جدر وفي قنفذ قْنفود بقاف مثلثة ومن مظاهر التيسير في عاميتنا الحفاظ على علامة إعرابية واحدة فنقول جا خوك بمعنى جاء أخوك ولقيت خوك ومّريت بخوك بمعنى مررت به وكذلك بوك فهذا الاسم من الأسماء الخمسة يلازم الواو في كل حالاته الإعرابية، بينما جمع المذكر السالم يلازم الياء فنقول جاو المعلمين ولقيت المعلمين ومريت بالمعلمين.

ومن هذا التيسير على ما يبدو احتفاظهم بحرف العلة في الأمر وتجويزهم التقاء الساكنين فنقول مثلا في قل قول، وفي بع بيع، وفي مل ميل، من مال يميل.

ويبدو أن بقاء حرف العلة هنا يشبه ما نجده في بعض الأبيات العربية قال أحد الشعراء :

وتهزأ مني شيخة عبشمية كأن لم ترا قبلي أسيرا يمانيا

وقول الشاعر الآخر :

ألم يأتيك والأنباء تنمي بما فعلت لبون بني زياد

ومن هذا التيسير على ما يبدو تجنب النطق بالمتحركات المتوالية لذا نقول بدل من شَجَرَة، شجْرة

ومن مظاهر التيسير في العامية الجزائرية القلب المكاني حيث نقول جَبْدو بدلا من جذبه وهناك مظهر آخر من مظاهر التطور في اللغة وقانون من قوانينها وهو القياس، فليس كل ما ننطق به قد سمعناه من قبل، بل للقياس أثر كبير في كلام الناس، سواء كان صحيحا أو خاطأ كما حدث مع المتنبي قديما عندما جمع بوق على بوقات بدلا من أبواق ولقد استغربت وأنا ألاحظ جمع كلمة " كادر " الأجنبية على وزن كوادر ومعناها الإطار لهذا نسمع في نشرات الأخبار قولهم اجتمع كوادر الدولة مثلا : وكادر على وزن فاعل.

ومن أعجب أنواع القياس عندما نسمع شبابنا هذه الأيام يستعملون أفعالا للغات أخرى بصيغ عربية في الماضي أو المضارع أو الأمر فيقولون مثلا : اينافيڤـي، ايكونيكتي، يبلونجي، يسويفي، يبرونشي، يبرونزي... الخ

ومن أسباب التطور كما يرى رمضان عبد التواب ما سماه بـ " بلى الألفاظ " الذي أراه صورة من صور الميل إلى التيسير، فاللفظ بعدما يتكرر كثيرا ويصبح مألوفا إلى درجة أن إنقاص بعض أجزائه لا يؤثر في أدائه للمعنى، ومن أمثلته على مستوى التركيب عندنا واش الحال ؟ شحال هذه البضاعة ؟ بمعنى كم قيمتها؟، فعند تفكيك هذه العبارات نجد أن الأولى هكذا، أي شيء حالك ؟ أي كيف هو؟ وأي شيء حال هذه البضاعة ؟ أي هي في حالة غلاء أو رخص ؟ أي ماقيمتها ؟ ومنه عبارة مسلخير وبعضهم يقول سلخير أي مساء الخير أما العراقيون فيقولون الله بالخير، يحذفون الكلمة الأولى لدلالة زمن التلفظ عليها فهي في الصباح صبحك الله بالخير وفي المساء مساك الله بخير.

وكلمة للساعة بمعنى " للتو" أو " الآن"، يقولون في مصر " لسه " وفي المغرب العربي " سَعْ " أما أهل السودان يقولون " لساتي " ومن مظاهر التطور في اللغة ما سماه عبد الصبور شاهين إعادة الاقتراض وسماه رمضان عبد التواب سياحة الألفاظ حيث ذكر هذا الأخير أن اسم تفيدة عند المصريين أصله توحيدة قلب الأتراك الواو فاء ثم أعاد المصريون اقتراض اللفظي الذي خرج من عندهم أساسا، ولكن بصورة جديدة ليست هي التي أخذها عنهم الأتراك، ولعلى ما يشبه هذا عندنا في الجزائر كلمة مسجد الذي يسميه بعض سكان العاصمة مسيد وكلمة نومرو " الرقم " أعدنا اقتراضها من الفرنسية بالرغم من أن أصلها عربي وكذلك لفظة " كابل " بمعنى 'الكبل

أو الحبل أو القيد وغيرها من الألفاظ الكثيرة كلفظة الكاميرا وأصلها العربي القمرة ومنه أيضا كلمة أميرال بمعنى أمير البحر.

والمناسبة أو شاهد الحال عامل من عوامل تطور اللغوي أيضا ونعني به مناسبة الألفاظ للسياق الذي قيلت فيه، والعلاقة بينها وبين هذه المناسبة، فالألفاظ عندما تولد وتطلق على المسميات لا تطلق باعتباطية مطلقة، وإنما تكون هناك علاقة ما بين الدال والمدلول، وهذه العلاقة وهذه المناسبة قد تخفى أو تغيب فتبدو منقطعة الصلة بالأصل الاشتقاقي الذي أخذت منه لذا نجدنا أحيانا نتساءل عن العلاقة بين اليمين والقَسم، وبين الصفقة والتصفيق، لأنه إذا عرفت الحادثة الاجتماعية أو التاريخية التي تفسرها والحال التي قيلت فيها اتضح أصل اشتقاقها وبان وجه إطلاقها على المعنى الذي تدل عليه(Abdel-Tawab, 1997).

في هذا المعنى يقول : ابن السراج " يعرض لأهل اللغة الواحدة أن يسموا ويصفوا أشياء بأسباب، ويكون لها أخبار، فيجوز أن تبلغنا ويجوز أن ألا تبلغنا فتكون كالأمثال التي لا تعرف أسبابها كلها "(Ibn Al-Siraj, 1972).

ومثال ذلك قولهم رفع عقيرته بالغناء، والعقيرة في الأصل لا علاقة لها بالصوت ولا بالغناء وإنما أصل العقر القطع، وأصل الحكاية أن أحدا عقرت رجله " بترت " فكان يرفعها ويصرخ، فالعقيرة في الأصل هي الرجل المعقورة، ثم انتقل معنى العقيرة إلى رفع الصوت مطلقا وإن كان في الغناء.

يذكرني هذا بما حدث للسوق الأسبوعية عندنا فإنه لما كانت العطلة الأسبوعية في فترة السبعينات بالأحد كان السوق الأسبوعي يعقد بالسبت وينتهي بالأحد فسمي ذلك السوق بسوق السبت وحدث أن غيرت الجزائر عطلتها إلى الجمعة، فأصبح السوق بالخميس والجمعة، إلى أن مكان السوق احتفظ بالتسمية القديمة " سوق السبت "، وحدث أن تغير مكان السوق أيضا بعد سنوات إلى أنه احتفظ بالتسمية الأولى وهي سوق السبت، فانظر كيف انتقلت التسمية من زمن حدوث السوق إلى ذات السوق، وأصبحت تنتقل معه في الزمان والمكان .ويذكر رمضان عبد التواب أن الفلاحين في مصر يسمون البذور " تقاوي " وذلك لأن السلطان كان يمنحهم البذور تقوية لهم ومساعدة منه لهم على الزراعة فسموا البذور تقوية وجمعوها على تقاوي(Abdel-Tawab, 1997).

ومن ذلك ما جاء في معجم الوسيط " القرافة : المقبرة، وهو اسم قبيلة يمنية جاورت المقابر بمصر، فأطلق اسمها على كل مقبرة (Anis, 2004).

أما لفظة حرامي المصرية بمعنى اللص فلم تشتق من الحرام وإنما نسبة إلى قبيلة تنتسب إلى حرام وهو اسم شخص وحدث أن امتهن بعض نسبه اللصوصية فكانوا يسمون كل لص حرامي نسبة إلى القبيلة ثم أصبحت مرادفا لكل لص.

وأحيانا يحدث تطور اللفظة من تغير صفة الصوت في هذه اللفظة فكلمة " حانوتي في اللهجة المصرية وهو الذي يجهز الموتى، أصلها من الحنوط وليس من الحانوت، وعندما فقدت الطاء صفتها نطقت تاء فغاب مصدر اشتقاقها.

هذا وتسهم أخطاء السمع أحيان في تحول اللفظة وتغيرها، وأذكر جيدا كيف كنا ونحن حديثو عهد باللهجة المصرية نكتب عند أستاذ العلوم " المزهر الخارجي " بدلا من المظهر الخارجي، و " زنب الأرنب " بدل من ذنب الأرنب قبل أن تنتشر الأفلام المصرية في بداية السبعينات من القرن الماضي ونصحح كثيرا من أخطائنا.

ولقد قضيت سنين طوال وأنا أقول " فقر متقع " إلى أن عثرت عليها مكتوبة " فقر مدقع "، فتفاجأت وظننت أنه خطأ مطبعي في الكتاب.

هذه هي بعض عوامل التطور اللغوي التي ساهمت في انتشار اللهجات و انفصالها شيئا فشيئا عن أصولها من الفصحى، وإنا على يقين أن معرفتنا بهذه القوانين وهذه العوامل تسهل علينا إرجاع اللهجة إلى أصلها الفصيح إن توفر الجهد الكافي والإرادة الصادقة والعزم الأكيد.

اللغة بين سنة التطور وقيود القاعدة:

والسؤال المطروح وهو معضلة المعضلات، إذا كان التطور سنة لا مفر منها فما جدوى وضع القوانين من أجل الحد من هذا التطور أو الإبطاء منه؟

بحكم العوامل التي تحيط باللغة وهي تتنقل عبر المكان وعبر الزمان تحدث تغيرات وتطورات في اللغة، تطورات قد تجعل اللغات المتولدة عنها بعيدة بعدا كبيرا عن اللغة الأم على كل المستويات: الصوتي والصرفي والنحوي والمعجمي وهذا ما يفقد اللغة خاصية التواصل عبر المكان والزمان، عبر المكان بحيث يصبح أفراد السلالة الواحدة يحتاجون إلى ترجمان لإجراء الوظيفة التواصلية بينهم وعبر الزمان بأن ينفصل أفراد الأمة عن تراثهم القديم الذي قد لا يفصلهم

عنه إلا قرون قد لا تزيد على الثلاثة أو الأربعة وهم بدورهم يكونون عاجزين عن نقل تراثهم إلى أجيال قادمة يريدون أن لا تنقطع الصلة معهم بأن ينقلوا إليهم فنهم وشعرهم وتجاربهم وثقافتهم وعلمهم وتراثهم عامة. لذا تلجأ أمم الدنيا قاطبة إلى وضع القواعد والضوابط التي تحاول أن تحد من هذا التطور السريع الذي يحدث للغة.

واللغة المقيدة تقابلها اللغة الحرّة واللغات الإنسانية تنقسم إلى لغات حرة ولغات مقيدة، واللغة الحرة هي التي لا يحافظ فيها قيد استعمالي على مستوياتها اللغوية، وخاصة المستوى النحوي فهي ليست حريصة على مراعاة القيد أو المحافظة عليه، فهي معرضة للتغيّر في هذه المستويات بدرجات متفاوتة، ولهذا فهي بحاجة أكثر من غيرها إلى معجم تاريخي يفسر معاني كلماتها، وتحتاج نصوصها إلى الترجمة إليها إذا كانت بعيدة عن مستواها الجديد زمانيا، ومن اللغات التي تعتبر حرة اللغة الانجليزية، والأمر ينطبق على مئات اللغات الحرة في العالم. وهاته اللغات الحرة معرضة للموت والانقراض بسرعة أكبر بكثير من اللغات المقيدة، لأن القيد اللغوي يسهم في المحافظة على أهم مستويات اللغوية وهو المستوى النحوي التركيبي وهذا ما حافظ على اللغة العربية هذه المسافات الزمنية الطويلة.

واللغة إذ تنشأ إنما تنشأ حرة وتتغير مستوياتها تغيّرا حرا خاليا من أيّ قيد يذكر، حتى إذا تملك أفرادها رغبة في المحافظة عليها على المستوى الذي وصلت إليه لأسباب خارجة عن اللغة ذاتها وغالبا ما تكون دينية أو عرقية بما يحدو أهلها من حبّ التميّز والتفرد وضعوا لها القوانين الصارمة من أجل الحدّ من فعل عوامل التطور المعروفة، وهذا الذي حدث للغة العربية بمجيء الإسلام، فاللغة العربية قبله كانت حرّة خاصة وأنها كانت شفاهية أكثر منها كتابية وهذا ما زادها حريّة وتبدّلا بحكم العامل الجغرافي المكاني، والعامل الزماني.(Ababneh, 2018)

ونعود فنقول : إن التطور اللغوي في مفهومه اللساني هو أي تغيير يصيب عناصر اللغة، ويكون إما بتحول تام يحدث تدريجيا عبر الزمن تخرج به اللغة من مرحلة تاريخية إلى أخرى فتصبح لغة ثانية غير الأولى، وإما بتكيّف ذاتي يحدث داخل نظام اللغة ذاته، ويحقق الملاءمة بين البنى اللغوية والتغيّر الاجتماعي، لأن تطور لغة ما مرتبط بتطور الحاجات التواصلية للجماعة التي تتكلم تلك اللغة ويعود ذلك إلى أن وظيفة اللغة الرئيسية كما يرى أصحاب الاتجاه الوظيفي للغة ومنهم أندري مارتيني،هي التواصل ولكننا نخطئ عندما نعتقد أن التواصل نوع واحد

هو التواصل الظرفي الحيني إذ التواصل قد يكون مع الماضي أو مع المستقبل وعندها الأمر يختلف ونظرتنا للتطور تختلف، وينقسم الباحثون في نظرتهم إلى التطور إلى ثلاثة أقسام رئيسة:

1 – قسم يرى أن التطور شرّ كله ولابد من محاربته لأنّه يفصلنا بمرور الزمن عن تراثنا وأعز ما نملك.

2 – وقسم لا يهمّه العامل الديني وعليه لا يهمه أمر الانفصال عن التراث فينظر إلى الأمر نظرة لسانية بحتة.

3 – وقسم توسّط في الأمر بين الفريقين، وهم إلى الفريق الثاني أقرب لأن أي عملية للتكيّف ولو كانت من داخل اللغة ذاتها، هي عملية تغير والتغير مهما كان يسيرا وبطيئا إلى أنه يؤدي عبر المسافات المتطاولة من الزمن إلى التغيّر المحذور وهذا الفريق يرى حتمية التطور اللغوي، وهو حينها لا يسعى إلا إلى معرفة كيف تستجيب اللغة في نفس الوقت لحتمية التطور وثبات القاعدة.(Chandoul ,2012)

وحتمية التطور هاته تخضع لجملة من العوامل الاجتماعية والنفسية المؤدية إلى ذلك التطور.

أما العوامل الاجتماعية فتمثل في تطور الحاجات التواصلية وذلك بحكم التغيرات الفكرية والاقتصادية والاجتماعية التي تطرأ على المجتمع، كما يتمثل في تنوع العلاقات البشرية الذي ينتج عنه التداخل اللغوي الذي يؤدي إلى عبور ألفاظ وأساليب جديدة تسهم إسهاما مباشرا في تطور بعض الأساليب ومعاني عدد من الألفاظ.(Chandoul , 2012).

وتتمثّل العوامل النفسية في حالة المتكلّم عندما يستعمل اللغة، فالحالة النفسية في كثير من الأحيان تملي على المتكلم الألفاظ والعبارات التي يراها مناسبة للتعبير عن أغراضه، بغض النظر عن استجابة ما يقوله للقواعد المرجعيّة، هذا الانزياح عن اللغة المعيارية قد يصادف قبولا عند جماعة المتكلمين فيعم تداوله ويصبح استعمالا شائعا ويدخل في هذا الجانب أيضا الطريقة التي تعلم بها الطفل لغته، فظروف كلّ واحد منّا تختلف عن الآخر وبقدر هذه الظروف وبقدر ما علق في أذهاننا من قواعد اللغة تكون أشكال تعبراتنا داخل المجتمع ومهما حاول الفرد إلا أنّه لا يمكنه بحال أن يتعرف على كل قواعد لغته النموذجية، ولا يمكنه الاحتفاظ بكل ما سمع من هذه اللغة كما لا يمكنه أن يطبق ويستعمل كلّ ما عرفه من قواعد.

ومن هنا ندرك أن عوامل تطور اللغة قد تكون عوامل داخلية تتعلق بطبيعة اللغة ذاتها وقابليتها للتبدل والتطور وعوامل خارجية لها علاقة بالمجتمع وتبدل حاجات الناس، هذا التبدل الذي تسايره اللغة وتمشي معه ولا ينبغي أن تنفصل أو تختلف عنه، ويلحق بالعوامل الخارجية العامل النفسي للفرد المتكلم المستعمل لهذه اللغة أو تلك.(Chandoul , 2012)

والحقيقة أنه إذا لم تقيد اللغة بقيود القاعدة فإنها معرضة للموت، لأن القيد يسهم في المحافظة على أهم مستويات اللغة وخاصة المستوى النحوي واللغة العربية من أكثر لغات العالم قيدا وهذا ما جعل العربي المعاصر يفهم لغة امرئ القيس وزهير في حين أن الإنجليزي لا يكاد يفهم لغته التي كتبت منذ أربعة قرون مثلا.(Ababneh, 2018)

والسؤال المطروح هل عربيتنا الآن هي عربية امرئ القيس ؟

والجواب طبعا بالنفي، لأن القواعد التي تحكم اللغة نوعان قواعد ثابته تحكم اللغة وينبغي أن تكون مرجعا للجميع وهو ما قرره علماء اللغة من قواعد منذ مئات القرون،وقواعد خاصة تخضع لاستعمال كل فرد من أفراد المجتمع.هذا الاستعمال الذي يمكن أن يفلت، ولكي لا يبتعد كثيرا ينبغي أن يرد إلى القواعد العامة من حين لآخر، فالتطور يحدث في الأداء ولا ينبغى أن يتساهل في التطور في الكفاءة اللغوية , في الكلام وليس في اللغة حسب مصطلح دوسوسير.

ولعلنا نتخذ في هذا الأمر طريقا وسطا يقترب من رأي محمود تيمور حين يقول: إن بين العامية والفصحى ستارا موهوما، علينا أن نجلو غشاوته عن العيون، وليس من خير الفصحى أن تقوم بينها وبين العامية هذه العزلة الموحشة، وما الكلمات العامية إلا مصنوعات وطنية نسجت من خيوط عربية وصقلتها ألسنة عربية وأصبحت لنا بها ألفة وأنس. وهي إذا دامجت الفصحى أكسبتها مزيدا من الدقة والوضوح، وأفاضت عليها مرونة واستجابة للحياة المتجددة.(Taymour ,1998)

فاللهجات مهما تباينت ينبغي أن تبقى تحمل خصائص اللغة المشتركة.

والبعد عن اللسان –كما قال ابن خلدون– إنما هو بمخالطة العجمة. فمن خالط العجم أكثر كانت لغتة عن ذلك اللسان الأصلي أبعد؛ لأن الملكة إنما تحصل بالتعليم، وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الأولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للعجم، فعلى مقدار ما يسمعونه من العجمة ويربون عليه، يبعدون عن الملكة الأولى(ibn Khaldun, 1984)

لذلك نرى حل المشكلة يمكن أن يستنبط من كلام الرافعي ... أن العربية الفصحى مدنية معنوية لم تبرح قائمة على تحرير هذه اللهجات العامية وتهذيبها كلما خالطتها في التعليم والقراءة –فإن ميراث العامة إنما يثبت في الأميين– واعتبر ذلك في البلاد التي تفتح فيها المدارس وتنشر الصحف وتبث المؤلفات؛ فإنك ترى عامية أهلها تتفصح على نسبة مطردة بما يلين من حواشيها ويرق من جوانبها ويستأنس من غريبها؛ وهذا هو السبب في رقة لهجات الحواضر لعهدنا دون ما يجاورها من القرى، ثم في تفاوت لهجات بعض القرى الكبيرة، ثم في اختلاف اللهجة في أهل القرية الواحدة؛ حتى لقد تجد لهجة الرجل أرق وأعذب من لجهة زوجه وأولاده، ثم تجد مذهبه من ذلك غير مذهب جاره وصاحبه؛ ولا يكون السبب في هذا التفاوت غير صحيفة يقرؤها كل يوم(Al-Rafi'i, 1974).

إن مشكلة اللغة كما يرى محمود تيمور أن اللغة الفصحى هي لغة الكتابة لا لغة الكلام، ومن أكبر مظاهر حيوية اللغة أن تكون لغة كلام يستعملها الناس في حواراتهم وأحاديثهم وتواصلهم اليومي وفي كل مناحي الحياة لذا يقترح أن نحاول تقليص الفارق بين العامية والفصحى لأن العامية على النقيض تماما من الفصحى حيث إنها لغة كلام لا لغة كتابة، وسبيل ذلك يتمثل في أربع خطوات ينبغي القيام بها وهي :

1-تزويد اللغة

2-تبسيط اللغة

3-تيسير النحو

4-تعميم الضبط

وفي النهاية نقول إنه رغم أن التطور اللغوي سنة كونية لا محيد عنها فهو لا يشكل خطرا على اللغة العربية على الخصوص لأنها ودون لغات الدنيا ارتبطت بالمقدس من قرآن وسنة وعلى حد قول مي زيادة ستبقى اللغة العربية حية مادام الإسلام حيا ومادام في أنحا المسكونة مئات الملايين من البشر يضعون أيديهم على المصحف حين يقسمون(Ziada , 2012)،أضف إلى ذلك ترسانة القواعد التي تركها الأوائل من العلماء والتي ساهمت في الحفاظ على كيان وصلب اللغة على مدى مئات السنين، إضافة إلى انتشار الكتابة التي تعد عاملا مهما في الحفاظ على اللغة، وإذا علمنا أن التطور اللغوي من طبيعته أنه بطيء جدا زال قلقنا وزاد اطمئنانا، والذي يزيد من اطمئنانا أكثر أننا وبعد هذا البحث صرنا إلى نتيجة مفادها أن

عمليةالبناء في اللغة أسهل من عملية الهدم مهما كان نوعه إذا توفرت الإرادة الصادقة والعزم الأكيد والدليل على ذلك أن جيل الاستقلال في الجزائر أقرب وعلى كل المستويات إلى اللغة من جيلين أو ثلاثة ممن عاشوا فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، فمدة مائة واثنتين وثلاثين سنة من محاولة محو مقومات الأمة وعلى رأسها اللغة العربية، محتها المدرسة الجزائرية في أقل من عقدين من الزمن.

خاتمة:

من خلال هذا البحث توصلنا إلى النتائج الآتية:

1-خلق آدم متكلما مدركا وواعيا لكل ما يحيط به في حدود بشريته وما يحتاجه في التخاطب والتواصل مع غيره في بدية الخلق.

2-لغة آدم هي أم اللغات ثم انفصلت عنها بقية اللغات وفق سنن التطور اللغوي وقوانينه وأسبابه.

3-العاميات المنتشرة في أنحاء الوطن العربي اليوم تطورت عن لهجات عربية مختلفة كانت تعيش بالموازاة مع لهجة قريش ولم تطور عن لهجة واحدة هي الفصحى كما يرى الرافعي.

4-التطور نوعان، تطور محمود لا يأتي على أصل اللغة بل يحفظ لها ديمومتها وبقاءها بما يوفره لها من إمكانية التأقلم مع الواقع ومسايرته وما يضيفه إليها من عوامل تضمن لها البقاء والاستمرار ومسايرة الواقع ؛ وتطور مذموم مرفوض يأتي على أصل اللغة ويقضي على بناها الأساسية فيحولها إلى لغة أخرى كما حدث مع لغات أخرى منها اللاتينية وهو سبب موت اللغات.

5-معرفة مظاهر التطور اللغوي وعلله وقوانينه آثار نستطيع بها إعادة العامية إلى حضن الفصحى بمجهود يسير لو صادف حسن النية وصدق العزيمة، لأن المسافة بين العامية والفصحى مسافة ليست كبيرة.

6-المسافة بعيدة بين العامية والفصحى في مجال واحد هو المستوى التركيبي الإعرابي وهذا الفارق يزول كلما اقترب العربي من الفصحى بالتعلم أو المطالعة أو مشاهدة البرامج والأفلام ونشرات الأخبار أو النقاشات بالفصحى،فالعربية مدنية معنوية لم تبرح قائمة على تحرير اللهجات العامية وتهذيبها كلّما خالطتها في التعليم والقراءة،فإن ميراث العامية إنما يثبت في الأميين كما يقول الرافعي.

7-اعتبار المظاهر اللغوية المحدثة التي تخرج عن مستوى الفصيح ويعتبرها الكلاسيكيون أخطاء شائعة، مظهر تطور طبيعي في اللغة لا تخرج في خصائصها عن نظام اللغة العام

وعما يوفره هذا النظام من القوانين والقواعد وهذا باعتبار التطور اللغوي تغيرا يصيب اللغة في مرحلة من مراحلها استجابة لتغير الحياة الاجتماعية من أجل تحقيق وظيفتها التواصلية ضمانا لاستمرارية وجودها، فمن الضروري أن نخفف من صوارم القاعدة في مستوى الأداء على أن نحافظ عليه في مستوى اللغة في بطون كتب النحو ومعاجم اللغة.

8-يقترح البحث أن تدرس اللغة الفصحى المعاصرة في الابتدائي والسنتين الأوليين من مرحلة المتوسط وتدرس اللغة الفصحى التراثية ابتداء من السنة الثالثة من مرحلة المتوسط بتدريس نصوص من الأدب العباسي والأموي على أن يدرس الأدب الجاهلي في المرحلة الثانوية، وذلك لأن لا ننفصل عن واقعنا بالوقوف في وجه سنة التطور بتدريسنا للعربية المعاصرة وأن لا نقطع صلتنا بالتراث وذلك بتدريسنا للعربية التراثية.

REFERENCES

Al- Quran.

AbabnehYahya Attia Al-Qasim.(2018). Allughatal Arabia baynalqawaeidia walmutabaqi, Irbid, Jordan.

Abdel-Tawab, Ramadan.(1997). altatawrallughawi, maktabatalkhanji, Cairo, Egypt.

Al-Ghanimi, Saeed.(2016).yanabieallughatal'wlaa,manshurataljmal, Beirut, Lebanon.

Al-Rafi'I,Mustafa Sadiq.(1974).tarikhadaabalarab, daralkitabalarabi, Beirut, Lebanon.

Al-Rajhi,Abdo Ali Ibrahim.(1962). allahajatalarabia, Dar almaarf, Cairo, Egypt.

anis, ibarahim. (2004).almuejamalwasit ,maktabatalshuruqalduwlia, Cairo, Egypt.

Chandoul,Mohamed.(2012).altatawrallughawi,alamalkutubalhadith, Irbi, Jordan.

ibn al-sarraj, Abu Bakr Muhammad. (1973). risalatalaishtiqaq,Dar Al Haitham,Damascus , Syria.

IbnAchour, Mohamed Eltaher.(1984).altahrirwaltanwir, Dar Tunisian lilnashr,Tunis.

ibnKhaldun, Abd al-Rahmanibn Mohammed. (1984). almuasasat , aldaarTunisian ,Tunis.

IbnManzur, Muhammad bin Makram bin Ali.(1999). lisanalearab , darihyaalturathalearabii, Beirut, Lebanon.

Khalil, Helmy.(2008).almualid fi alarabia, Dar alnahdaalarabia,Beirut,Lebanon.

Mai Ziada.(2012).baynalmadiwaljazr, muasasathindawi, Cairo, Egypt.

Mukhtar Omar, Ahmed.(2008). moujamallughaalarabia , alamalkutub, Cairo, Egypt.

NayetBelkacemMouloudKassem .(1973).allughatwalshakhsiat fi hayatal'umm, majalatal'asala, Algeria.

TaymourMahmoud Ahmed.(1998).mushkilatallughaalarabia, maktabataladab, Cairo, Egypt.